من وحى بغداد

من جحيم الظلم في القاهرة
إلى سعير الوجد فى بغداد
للدكتور زكى مبارك

وَفَدْتُ عَلَى بغـــدادَ والقلب مُوجَعٌ
فهل فرّجتْ كَربى وهل أبرأتْ دائى
تركتُ الخُطوب السُّودَ فى مصرَ فانبرتْ
سِهامَ العُيُونِ السُّودِ تَصْـدَع أحشائى
تركتُ دُحَاناً لو أردتُ دفعتُهُ بعَزْمة مفتُول الذِّراعين مضَّاء
وجئتُ إلى نارٍ سَتَشْـوى جَوَانحى
وتصْهَرُ أضْـلاعى وتسحق أحنائى
فيا ويح قلبى عضّه الدهر فاكتوى
بلَفْحَةِ قتّالَيْن : جَوْرٍ وإسباء

* * *

سمعتُ حَمَاماتٍ يَنُحْن فعَزّنى حَنينى إلى صحبٍ بمصرَ أشحّاء
هُمُ أسلَمُونى لاعفا الحبُّ عنهمُ إلى ليلةٍ من غمْرَةِ الحُزن لَيْلاء
أُنادِمُهُم بالوَهْم والقلبُ عارفٌ بأنى لَدَى كأسٍ من الدَّمْع حمراء
شربتُ الأسى صِرْفاً فثارتْ مدامعى
تذيعُ حـــديثى فى الغرام وأنبائى
أنا الطائرُ المجروحُ يَرْميه بؤسُهُ لشقْوَتِهِ ما بَيْنَ نارٍ وَرَمْضاء
فإن عشتُ آذتنى جُرُوحى وإن أمُتْ
شَوَتْنِىَ فى الأرواح نيرانُ بأسائى

* * *

أحبّاىَ فى مصر تعالَوْا فإننى أُوَدِّعُ فى بغدادَ أُنسى وسَرّائى
تعالَوْا أعينونى على السُّهد والضَّنَى
فلم يَبْقَ منى غيْرُ أطياف أشـــلاء
تعالَوْا أُحَدِّثْكم فى القلب لَوْعَةٌ
هى الجاحمُ المَشبُوبُ فى جَوْف قصّاء
تعالَوْا تَرَوْا بغـــدادَ أغرتْ بهجتى
نُيُوبَ المنايا فى صَبَاحى وإمسائى
أحبّاىَ فى مصر ، وَهَلْ لى أحِبّةٌ ؟
أحبابى فى مصر تعالَوْا أحبائى
تعالَوْا إلى بغدادَ تَلْقَوْا أخاكم صريعَ خُطُوب يَنْتَحِين وأرزاء
تعالَوْا تَرَوْنى فى صروفٍ من الجوى
تهـــدّم بُنْيانى وَتَنْقُضُ حَوْبائى

* * *

عفا الحبُّ عن بغدادَ ، كم عِشْتُ لاهياً
أُكاثِرُ أيامى بليـــلَى وظمياء
فكيف وقعتُ اليومَ فى أَسْرِ طِفْلَةٍ
مكحّلةٍ بالسحر ملثوغةِ الراء
أصاولُ عينيها بعينىَّ والهوى يُشِيعُ الحُمَيّاىَ فؤادى وأعضائى
وأشهدُ أطياف الفراديس إن بدتْ
تراودُ أحـــلامى مزاحاً وأهوائى
وألمس نيرانَ الجحيم إذا مضتْ ترُوم بعينىَ الجِدَّ بُعدى وإقصائى
أُكاتِمُ أهليها هُيَامى ولو دَرَوْا
لهامت بجنب الشط أرواح أصدائى
إلى الحب أشكوها فقد ضاق مذهبى
وأخلفنى بعـــد الفراق أعزائى
إلى الحب أشكوها فلولاهُ لم أبِتْ حَليفَ هُمُوم بَضْطَرِعْن وأنواء
إلى الحب أشكو بل إلى الله وَحدهُ أُفوّض بأسائى لديها ونعمائى

* * *

أَرَبّاهُ أنقذنى فأنت رميتنى بقلبٍ على عهد الأحباء بَكّاء
أَرَباهُ لاتفعل فإنى أرى الهوى عَلَىّ وَقُدِهِ بالقلب أنقاسَ رَوْحاء
أُحِبُّ سعيرَ الوجد فارْمِ حُشاشتى على جمراتٍ منه حمقاء هوجاء

أحب شقائى فى الغرام وإنهُ لأرْوَح من مطلولة الزَّهر شَجْراء
فياخالق الدار العَصُوف وشائقى إليها أَدِمْ فيها لَوَاعج إصلائى
أحبك يارب فهل أنت شافعى إلى سرحةٍ فى شَطِّ دجلةَ زهراء
شهدت فنائي فيك حين رأيتها تحاول إضلالي وَتَنْشد إفنائي
وَمَن أنت يارب؟ أجبنى فإننى رأيتك بين الحسن والزهر والماء
أنا الفانِ المفتونُ فارحم بليَّتى وَقدِّر بأرجاء الفراديس إنوائي
وَلاتُخْلني فى جنة الخُلد من هوًى بِرُعْبُوبَةٍ لاتعرفُ الرفقَ حمقاء

أُحِبُّ المِلاح الهُوجَ فى الخُلد نفسه
عساني بدار الخلد أهجر إغفائى
تباركتَ! ما الجناتُ من دون لوعةٍ
سوَى بُقْعَةٍ فى غابة الموت جَرْداء
يحبُّ ضعيف الروح في الخلد أُنسَهُ
إلى غادةٍ مأمونة الغيب بَلْهاء
وَأَنْشُدُ فى الجناتِ إن ذُقْتَ رَاحَهَا
مَلاَعِبَ مِن طَيْش وَفَتْكٍ وَإغواء

* * *

أضاليلُ يُزْجيها خيالي وَأَنثنى إلى ساحةٍ مطموسة الأنس قَفْراء
لقد كنتُ فى مصر شقيًّا فما الذى
سَتَجْنِين يا بغدادُ من وَصْل إشقائي
أهذا جزائي فى العراق وَحُبِّهِ أهذا جزائى فى رَوَاحى و إسرائى
أخِلاَّىَ ما بغدادُ راحى وإن دَرَتْ
قلوبُ صَبَايَاها مَدَارِجَ إصبائي
أخِلاَّىَ رُدُّوني إلى مِصرَ إنني أرى الظلمَ دُونَ الوجد تسعيرَ لأواء

* * *

سَقَى الغيثُ أيامي بحلوانَ وارتوتْ
مَلاَعِبَ أحلامى هناك وأهْوائي
فما غدرَتْ بي فى حماها نَسَائِمٌ
سقاها رَبِيعُ الحُبِّ أكوابَ أنداء

وَللهِ عَهْدٌ بالزمالك لم يكنْ سِوَى لمحاتٍ يَزْدَهِينَ وأضواء
هصرتُ به غُصناً نضيراً تفتحتْ أزاهيرُهُ فى ظِل ذاك لقاء
وأين على مصرَ الجديدةِ مَوْرِدى وأين سُهَادى فى حماها وإغفائى
أطايبُ ذِفناها ولم نَدْرِ أنها لنُذْرَتِهَا فى الدَّهر أزهارُ صَحْراء

* * *

أَحِبَّاىَ فى مصر الجديدةِ سارعُوا فقد صَرَّ منّي حول دجلة أدوائى
أَجِدَّكُمُ هل تعلمون بأنني
وإن كنت جار الشط أشرب أظمائى
خذونى إليكم يا رفاقى فإننى أحاذِرُ فى بغدادَ حَتْفِي و إصمائى
أخاف العيونَ السُّودَ فليرحم الهوى
جُبَيْعَةَ أهلى يوم أقضى وأبنائى
أنادمُ أحبابى وفى الحق أننى لهول الذى ألقى أصَاولُ أعْدَائى

* * *

أدجلةُ مابيني و بينك؟ أفصحي فقد طال فى مغناك تبريح إضنائى
وردتك أستشفى فثارت بليَّتِي وَأَرْمضنِي حُزْنى وَأَضْرعنى دائى
وَرَدْتُكَ أشكو النيل يطفى جُحُودُهُ
فأين سلامى فى حماك و إشكائى
سقى وَرْدُكَ المسولُ غيرى ولم أجِدْ
لهول بلائى غير أوشاب أقذاء
أطال أناسٌ فيك نجوى نعيمهمْ
وفى شطك المورودِ ناجيت بأسائى
أدجلة أين الحب؟ قولى فإننى تقلبت فى نارين: حقدٍ و بغضاء
أدجلة أين النور؟ قولى فإننى على الشط أستهدى دياجير ظلمائى
أدجلةُ أبلانى اغترابى وَشَفَّنى هُيامي بظُلمى فى بلادى و إشقائى
أدجلةُ أنت النيلُ بغياً وَكُدْرَةً فكيف من النارين تسلم أحشائى
أدجلةُ ساقتنى إليك مَقادرٌ تأنَّقنَ فى كيدى وأبدعن إيذائى
أدجلةُ واسينى فللضيف حَقُّهُ إذا شئت من زادٍ وحبٍّ وصهباء
طغى موجك الصخاب فاهتاج لوْعتى
وأيقظ أشجانى و بلبل أهوائى

وقفتُ أبثُّ الجسر مابي فلم أكنْ سوى ناقثٍ في أذن رَقطاءَ صَمّاء
وقفتُ أُرجّيـه ولم أدرِ أنني أُسطِّر أحلامي على ثَبَجِ الماء
إلى أين هـذا التِّبْرُ يجري وحولهُ
حرائقُ من أرضٍ على الريِّ جَدْباء
أرَقْتُ دُموعي في ثراها فما ارتوَتْ
وهل كان دمعي غير أطياف أنداء
شَوَتْنِي الخطوب السُّودُ شيًّا فلم تدع
لمُقْسِفٍ حُلْماً إذا رام إبكائي
أجِبني ياصَوْب الغوادي فإنني على علتي في الدهر أسْماء أدْوَاء
تحـــدَّرتَ مُختالاً فلم تُغن أمةً
تَشْهى لطول الجـدب أو شال أنهاء
بكى حولك الماضون دهراً فهل رَأَوْا
لدى موجك الصخّاب لحظة إصغاء
تَشَكى العراقُ الجَدْبَ وارتعتُ أبتغي
نصيبي فلم أظفـــر لديكَ بإرواء
أعِنْدَكَ ياصَوْبَ الغوادي تحيةٌ لناس عَلَى شَطَّيْكَ ذاوِينَ أنضاء
تروحُ إلى البحر الأجاج سفاهَةً عَلَى شوْق أهل في العراقِ أوِدَّاء
أبوك السحاب الجَوْدُ يرتاحُ جُودُهُ
إلى كلِّ أرْض في العراقين مَيْثَاء
فعمَّنْ أخـذت البخل يا جار فتيةٍ
هم الجفر للنساب في جوف بطحاء
شكا الزهرُ في شَطَّيْكَ فاخجل وَنجّهِ
مِنَ الظمأ الباغي وَمِنْ حيّة الماء
جريتَ بلا وعيٍ إلى غير غاية مُحجَّلة بين المصاير غراء
فدعني أطل فيك الملام فلم أكن سوى شاعرٍ للحمد واللوم وشّاء
أأنت الذي يجفو الظّماء لينضَوي إلى لُجّةٍ في باحةِ البحر هوجاء
أأنت الذي يسقي البحار وحولهُ أزاهير في سهل يُفديه مِظْماء
وقفنا على شطيك نشكو أوامنا على نبرات الدف والعود والناء
فأين العطاء الجزلُ يافَيْضَ مُزْنةٍ مُحمَّلةٍ بالخير والشر كَلْفَاء

عشقت شقائي فيك للحبِّ إنني أُحبُّ شقائي في رحاب أحبائي

* * *

أبغدادُ هل تَدْرين أنّي مودِّعٌ وأن سَمُومَ البين تلفح أحشائي
وردتُك مُلتاعاً أصارع في الهوى دموع رفاقٍ وامقين أخلاّء
تنادَوْا إلى باب الحديد فودّعُوا بقايا فؤادٍ وافرِ العطف وضاء
وفيهم خَتُولٌ لو أراد لَرَدّني إلى روضة من يانع الأنس غنّاء
تقدم يستهدي العناق فلم يجـــد
سوى صخرة مكتومة السِّرِّ خرساء
وعاد يروض العَتْبُ أحلام قلبهِ
على خُطة من شائك الهجر عوجاء
وردتك مطعوناً تثور جروحهُ فكان بنوك الأكرمون أطبائي
لحبك يا بغداد والحبُّ أهوجٌ رأيت فنائي فيك مَشرِقَ إحياء
تناسيتُ في مصرَ الجديدة صِبْيَةً هم الزهرُ الظمآن في جوف بيداء
يناجون في الأحلام أطياف والدٍ لمهد بنيه وَالْبُنَيّات نسّاء

* * *

أبغدادُ هذا آخرُ العهد فاذكري مدامعَ مفطورٍ عَلَى الحبِّ بكّاء
أبغدادُ يضنيني فراقك فاذكري لدى ذمة التاريخ ديني وإضنائي
خلعت على الدنيا جمالكِ فانثنتْ تخايلُ في طِيبٍ وَحُسْنٍ وَلألاء
سيذكرني قومٌ لديك عهدتُهُمْ يحبُّون ظلاّمين ضُرّي وإيذائي
سيُمسي خصومي بعـدَ حين أحبةً
يذيعون مشكورين أطيبَ أنبائي
ستذكرُ أرجاء الفراتين شاعراً تفجّر عن مكنونة الدر عصماء
سيسأل قومٌ مَن زكيٌّ مباركٌ وجسمي مَدْفونٌ بصحراء صمّاء
فإن سألوا عني فني مصرَ مرقدي وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي
ستذكرني غيدٌ ملاحٌ أوانسٌ أطلن بلائي في الغرام وإشقائي
ستذكرني مِصرٌ وَما كان قلبها
سوى صخرةٍ في جانبِ النيـل مَلْساء
إلى اللهِ أشكُو لؤم دَهْرِي وَصَرْفَهُ
وَعِنْـــدَ الإلهِ البرِّ أودِع حَوْبائي

زكي مبارك